تصدير

يقول ابن خلدون: (اعلم أنَّ فنَّ التَّاريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمُّ الفوائد، شريف الغاية؛ فهو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولتهم وسياستهم حيث تتمُّ فائدة الاقتداء من ذلك؛ لما يرومه في أحوال الدِّين والدُّنيا، فهو يحتاج إلى مآخذ متعدِّدة، ومعارف متنوِّعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحقِّ، وينكبان به عن المزلَّات والمغالط؛ لأنَّ الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرَّد النَّقل ولم تنحكم أصول العادة، وقواعد السِّياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشَّاهد، والحاضر بالذَّاهب؛ فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلَّة القدم، والحيد عن جادَّة الصِّدق، وكثيرًا ما وقع للمؤرِّخين والمفسِّرين وأئمَّة النَّقل المغالط في الحكايات والوقائع؛ لاعتمادهم فيها على مجرَّد النَّقل غثًّا وسمينًا، لم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النَّظر والبصيرة في الأخبار؛ فضلُّوا عن الحقِّ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط).[١]

ويقول في موضعٍ آخر: (اعلم أنه لما كانت حقيقة التَّاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التَّوحُّش، والتَّآنس، والعصبيَّات، وأصناف التَّغلُّبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدُّول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من

---

(١) مقدِّمة ابن خلدون ص: : ١٩.

الكسب، والمعاش، والعلوم، والصَّنائع، وسار ما يحدث في ذلك بطبيعته من الأحوال.

ولما كان الكذب متطرِّقًا إلى الخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه، فمنها التَّشيُّعات للآراء والمذاهب؛ فإنَّ النَّفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر؛ أعطته حقَّه من التَّمحيص، والنَّظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيُّع لرأي أو نحلة؛ قبلت ما يوافقها من الأخبار لأوَّل وهلة، وكان ذلك الميل والتَّشيُّع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقال، والتَّمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله.

ومن الأسباب المفضية للكذب في الأخبار أيضًا الثِّقة بالنَّاقلين، وتمحيص ذلك يرجع إلى التَّعديل والتَّجريح، ومنها الذُّهول عن المقاصد؛ فكثير من النَّاقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع، وينقل الخبر في ظنِّه، وتخمينه، فيقع في الكذب).[1]

ومنها توهُّم الصِّدق وهو كثير، وإنما يجيء في الأكثر من جهة الثِّقة بالنَّاقلين، ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع؛ لأجل ما يداخلها من التَّلبُّس، والتَّصنُّع، فينقلها المخبر كما رآها، وهي بالتَّصنُّع على غير الحقِّ في نفسه.

ومنها تقرُّب النَّاس لأصحاب التَّجلَّة والمراتب بالثَّناء، والمدح، وتحسين الأحوال، وإشاعة الذِّكر بذلك، فيستفيض الإخبار بها على غير حقيقة؛ فالنُّفوس مولعة بحبِّ الثَّناء، والنَّاس متطلِّعون إلى الدُّنيا وأسبابها من جاه، أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل، ولا متنافسين في أهلها.

ومن الأسباب المفضية له أيضًا -وهي سابقة على جميع ما تقدَّم- الجهل بطبائع الأحوال في العمران؛ فإنَّ كلَّ حادث من الحوادث ذاتًا كان أو فعلًا لا بدَّ له من

(١) المقدِّمة ص: ٤٢

طبيعة تخصُّه في ذاته، وفي ما يعرض له من أحواله، فإذا كان السَّامع عارفًا بطبائع الحوادث، والأحوال، والوجود، ومقتضياتها؛ أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصِّدق من الكذب).[١]

(١) المقدِّمة ص: ٤٣-٤٤، لاحظ تركيز هذه الفقرة، ودخولها في صميم ما يذهب إليه ابن خلدون في سياق علمه الجديد.

ابن خلدون: سيرته الذّاتيّة

هو عبد الرَّحمن بن خلدون من أشهر علماء، وفلاسفة الإسلام.

ولد بتونس ٧٣٢هـ/ ١٢٣٢م، وينتمي إلى أسرة عريقة في العلم والسِّياسة، تلقَّى علومه منذ الصِّغر، وعاصر الأحداث الجسام التي عرفتها بلاد إفريقيا والأندلس، أو ما يعرف بالغرب الإسلامي.

وقد انخرط ابن خلدون في الحياة السِّياسيَّة المضطربة، فتولى بعض المناصب، وطمح إلى أخرى، فكانت أولى وظائفه كتابة العلامة في عهد ابن تافراكين، وأصبح عضوًا في المجلس العلميِّ بفاس في عهد السُّلطان أبي عنان، وذلك عام ٧٥٥هـ، ولكنه كره هذا العمل، وسعى للهرب من سلطة أبي عنان بالرَّغم من إكرام هذا الأخير له، وعلم أبو عنان بأنه يتآمر مع أمير بجاية المخلوع، فسجنه لمدَّة عامين، ثمَّ عاد بعد ذلك إلى وظيفته بعد وفاة السُّلطان أبي عنان، وفي عهد السُّلطان منصور بن سليمان تولى ابن خلدون وظيفة الكتابة، ولكنه ما لبث أن تمرَّد على الوظيفة، وفي عهد السُّلطان الصَّالح أبي سالم بن أبي الحسن أُسندت إلى ابن خلدون كتابة السِّر، ثمَّ تولى خطَّة المظالم، أو قاضي القضاة.

وفي عام ٧٦٤هـ هاجر إلى الأندلس، وتحديدًا إلى غرناطة، ثمَّ عاد إلى بجاية عام ٧٦٦هـ، وأسند إليه أميرها منصب الحجابة، وهو أعلى منصب في الدَّولة[1] ولكنه ترك بجاية بعد أن حدثت فيها فتنة، وغادر إلى بسكرة، ومنها إلى تلمسان عام

---

(١) تاريخ الفكر السِّياسي من حكم الملوك الآلهة إلى عصر النَّهضة، إبراهيم أبراش، ط١٩٩٩، ص: ١٩٤-١٩٥.

٧٧٢هـ، ثمَّ إلى فاس عام ٧٧٤هـ، فمكث سنتين حيث حدث انقلاب أطاح بمضيفه السُّلطان السَّعيد الصَّالح أبي العباس، فاضطرَّ ابن خلدون إلى العودة للأندلس سنة ٧٧٦هـ حيث حلَّ ضيفًا على سلطانها ابن الأحمر، وفي عام ٧٧٩هـ عاد إلى تلمسان، ومنها اتجه إلى أصاير بني عريف، وفيها انقطع عن الدِّراسة، والتَّاليف، وفي هذه الفترة ألَّف كتابه المقدِّمة.

وفي عام ٧٨٤هـ غادر المغرب متجهًا إلى الإسكندريَّة، وفي مصر مارس التَّدريس، والقضاء، ومناصب شرفيَّة هامَّة.

أمَّا مؤلَّفاته فلم يعرف منها إلا مؤلَّفه الكبير (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر)، وقد انقسم إلى ثلاثة كتب، أهمُّها (المقدِّمة)، وكتاب (العبر) وهو التَّاريخ، و(التعريف)، توفي رحمه الله بمصر سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م.(١)

(١) نفس المرجع.